

فيلم «الأيرلندي» رحلة داخل عقل قاتل بارد

صورة درامية لشهوة السلطة والمال والنزوع إلى السيطرة

يمكن القول إن فيلم «الأيرلندي» الذي عُرض في ختام مهرجان لندن السينمائي، هو أفضل أفلام مخرجه الشهير مارتن سكورسيزي وأكثرها إككاما وتأثيرا وقوة، منذ فيلمه المرموق «رفاق طيبون» (1989). إنه ليس فقط عودة إلى أجوائه المفضلة داخل المافيا الإيطالية، بل وإلى العمل مع عدد من رفاق جيله من عظماء التمثيل في عصرنا.

أمير العمري

كاتب وناقد سينمائي مصري



بذكرنا فيلم «الأيرلندي» The Irishman لمارتن سكورسيزي في بعض مشاهد، بما سبق أن شاهدناه في أفلام سابقة للمخرج ذاته مثل «رفاق طيبون» و«كازينو»، أو «الاب الروحي» لكوبولا، إلا أنه أقل اهتماما بالحبكة وبالإنارة، وأكثر تركيزا على شخصية بطله الفرد وكيف أصبح قاتلا محترفا يقتل دون تردد، بحيث يمكن اعتبار الفيلم دراسة في سيكولوجية قاتل محترف. هذا فيلم يميل أكثر للتأمل، للتعمق في عقل بطله وهو يتأمل مسار حياته بعد أن أوشكت على نهايتها، إنه يحاول الاقتراب الحذر من التكوين النفسي للشخصية الرئيسية، أن يفهمها، دون الاحتفاء، على الصعيد البصري، بما تقوم به.

فهو ليس بطلا بل نقيض للبطل. ورغم نجاحه في مهامه القاتلة فهو مهزوم في داخله. بعد أن يبلغ من العمر أرنه، كما يقال، يظل عاجزا عن الاعتراف بالخطأ أو إبداء الندم. يعتبر رحلة حياته الحافلة بالقتل وسفك الدماء قدرا وجوديا كان مكتوبا عليه أن يعيشها!

سرد متعرج

لم يكن من السهل أن تقبل شركات هوليوود التقليدية بإنتاج «الأيرلندي» الذي ظل يداعب خيال سكورسيزي لسنوات، لذلك كان الخيار الوحيد إنتاجه عن طريق شبكة نتفليكس التي تعرض لمستراتيجيتها عن طريق البث الرقمي، ليس فقط بسبب الميزانية الضخمة التي كانت مطلوبة للإنتاج (أكثر من 160 مليون دولار) بل والطموح الكبير لصنع فيلم ملحمي في ثلاث ساعات ونصف الساعة، أبطاله الرئيسيون من الرجال العجائز الذين يبدوون أقل تهورا وأقرب إلى «الأجداد الطيبين» الذين يمكنك أن تجلس بين أيديهم لتستمع إلى ما يوجهونه لك من نصائح بشأن الطعام الجيد وطريقة الطهي بالخطة الإيطالية، وكيف تتسع القبة على رأسك بحيث تتسبب نوعا من الأهمية، وكيف يجب أن تهتم أكثر بأسرتك وأبنائك.

يغيب عن الفيلم أيضا الدور النسائي الكبير الذي يضاهي أدوار أبطال الرجال (على العكس من «كازينو» مثلا)، فالمرأة في حياة بطل الفيلم فرانك شيران (روبرت دي نيرو) كانت دائما على الهامش، وهي كذلك دائما في حياة رجال المافيا الذين لا يخلطون بين العمل والحياة الخاصة.

كتب سيناريو الفيلم ستيفن زالان («قائمة شندلر» لسبيلبرغ و«عصايات نيويورك» لسكورسيزي)، مستندا على ما ورد في كتاب «سمعت أنك تظلي المنازل» I Heard You Paint Houses للكاتب الأمريكي المحقق السابق تشارلز براوند، الصادر عام 2004. وعنوان الكتاب والفيلم يشيران إلى طبيعة عمل القاتل المحترف الذي «يصبغ الجدران بالدماء»!

كنيدي التحقيق مع عدد من رجاله بل ومع جيمي هوفنا نفسه الذي اتهم بالتلاعب في أموال الاتحاد، وكان يقرض المال من صندوق تقاعد الأعضاء للمافيا، مقابل الحصول على مكاسب شخصية والاستعانة بهم لتصفية خصومه. ويصور الفيلم اغتيال كنيدي من وجهة نظر بطله كما لو كان نتيجة مؤامرة اشتركت فيها المافيا. ويدعم سكورسيزي الفيلم بالكثير من الشرائط التسجيلية المصورة لتلك الأحداث وأهمها اغتيال كنيدي، مع رصد تأثيره على جيمي هوفنا بوجه خاص الذي يصير على إعادة رفع العلم الأميركي فوق مبنى الاتحاد بعد أن كان مساعده قد أنزله في إبداء للحداد.

السير وسط الألفام

يبدأ الفيلم في الزمن المضارع، أي بعد 60 عاما من بداية الأحداث، وفرانك يروي لشخص لا نراه سوى قرب نهاية مسار حياته، من أول خدمته في الجيش الأميركي في إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية، وكيف استطاع التحدث باللغة الإيطالية، وكيف أنه أصبح منذ تلك الفترة رجلا اعتاد طاعة أوامر رؤسائه، فهو يقتل الأسرى من جنود العدو دون تردد، ثم يعود بعد الحرب إلى فيلادلفيا ليعمل كسائق شاحنة نقل لحوم لبعض المطاعم، قبل أن يتعرف على راسل بافالينو (جون بيشي) أحد كبار زعماء المافيا ويصبح نراعه الممنون، ورجل المهام الخاصة، يجمع الإتاوات ويقتل المتقاعسين والمتشاكسين.

عن طريق بافالينو يتعرف فرانك على جيمي هوفنا (ال باتشينو) رئيس اتحاد عمال النقل القوي، وينتقل ليصبح مساعده وحارسه الشخصي ويرتبط معه بصداقة عميقة، يشاركه غرف الفنادق، يلتحق بثلاث ساعات ويصعد ليصبح أحد كبار المسؤولين الناقدون فيه، لكن بعد أن يصل العناد والمكابرة بهوفنا إلى تهديد مصالح المافيا يصدر القرار (من أعلى) بالتخلص منه، ويتعين على فرانك نفسه قتله.

فرانك يروي ويعلق بصوته من خارج الصورة بعد أن أصبح شيخا طاعنا في السن يقيم داخل أحد منازل المسنين. ويتضح أنه يروي لقسن كاتوليكي ما يعتبر اعترافا كاملا بما جنته بدهاء. لكنه رغم ذلك، لا يرى ما يمكن أن يدعو للاعتذار أو إبداء التوبة وطلب الغفران. يعذبه فقط انفصال ابنته الصغرى القريبة من قلبه (بيغي) عنه منذ سنوات طويلة، منذ أن أدركت مبعرا صلوعه في عالم الجريمة، وخاصة بعد اختفاء صديقه الحميم الذي كانت تحبه جيمي هوفنا وتركز الشبهات حول دور فرانك في تصفيته.

هو فاختفى في 1975 ولم يعثر

يعتمد السيناريو سردا متعرجا، ينتقل عبر 30 سنة، من الحاضر إلى الماضي، ليعود إلى الحاضر ويعبر فترات زمنية مختلفة في الماضي، من حياة بطله الأيرلندي فرانك شيران في المافيا، وعلاقة المافيا برئيس اتحاد العمال في الولايات المتحدة جيمي هوفنا، وكيف لعب فرانك دورا رئيسيا في تلك العلاقة، وخلال ذلك يعبر الفيلم على موضوع الغزو الفاشل لكوبا الذي أمر به الرئيس كنيدي، وكيف شارك فرانك دون أن يعرف في نقل الأسلحة لفريق اللاجئين الكوبيين الذين شاركوا في عملية «خليج الخنازير» الفاشلة، ثم العلاقة المتوترة بين هوفنا والبيت الأبيض، والإشارة إلى أن المافيا دعمت انتخاب كنيدي، لكنه تنكر لها وبدأ شقيقه روبرت



البطل الوحيد ينصت إلى زعيم المافيا

مع سكورسيزي بعد «ذنب في وول ستريت» و«الصمت» في إضفاء ملامح الفترات القديمة من خلال توزيع الضوء في المشاهد الداخلية، وتغلبه الألوان الداكنة (البنّي بدرجاته والأصفر). وقد استخدم الحيلة الرقمية الحديثة لجعل الممثلين الثلاثة أصحاب الأدوار الرئيسية الثلاثة، الذين قاموا بأدوارهم في فترات سابقة من العمر (روبرت دي نيرو، آل باتشينو، جون بيشي)، يبدوون أصغر سنا بالتخفيف من تجاعيد الوجه. ولا شك أن الأداء التمثيلي يعتبر عاملا أساسيا من عوامل جمال الفيلم. هنا يعود روبرت دي نيرو للعمل مع صديقه القديم سكورسيزي بعد غياب 15 عاما. إنه يحمل عبء الفيلم بأكمله فهو يظهر في غالبية المشاهد، ويتقمص شخصية فرانك شيران بنفس طريقته المعروفة في التقمص الداخلي الذي يعتمد على معايشة الشخصية، والنفاد إلى سيكولوجيتها الخاصة، في أداء يجمع بين التحكم في حركات الجسد واليدين وتعبيرات الوجه ونبرة الصوت، بين التردد والتلغف والتغمة الاعتدائية والضعف الظاهري الذي يخفي قسوة مفرطة، وابتسامه الطفل والوجه الذي يمكن أن يدهش مرآة امرأة تعبر الطريق، يعرف متى يصمت ومتى يتكلم ومتى يغضب ويثور.

يستبد بشخص مثل هوفنا فيدفعه إلى مصيره، والعلاقات المريبة بين البيت الأبيض والمافيا، والجشع الذي يدفع إلى المزيد من الجشع، وحياة اللهو والليل والانتقال من زوجة إلى أخرى، وتلك الحوارات العبثية الطريفة التي تميز أفلام سكورسيزي وتجعل الشخصيات التي تشاهدها تبدو بسيطة في عاديته وتلقائيتها، تلك التي تدور بين راسل بافالينو وزوجته التي تصر على التدخين داخل السيارة، بينما راسل يحدثها كثيرا عن أضرار التدخين؛ هل هي أكثر خطرا من سفك الدماء؟

هذا أيضا فيلم عن الفرد في مواجهة آلة الضخمة أكبر منه كثيرا. يريد أن يشعر بالانتماء لهذا الكيان الأكبر (المافيا-السلطة-المؤسسة)، وأن يوفر حياة جيدة لأسرته، لكنه يشعر بالوحدة، فهو الغريب الذي ساقته الأقدار إلى عالم لم يكن منتميا إليه. وهو في هذا يذكرنا بالاختيار الإنساني- الوجودي الذي لبطل «رفاق طيبون». هذا الشعور بالوحدة يمتد معه إلى نهاية عمره عندما يذهب ويشترى العنق الذي سيرقد فيه رقدته الأخيرة.

براعة الإخراج

كعادة سكورسيزي، هناك اهتمام كبير بالحوار الطريف الخارج عن المألوف، وبمشاهد إعداد الطعام أو تناول الطعام في شهية حتى بعد القيام بعملية قتل، والمشاجرات ذات الطابع الطفولي نتيجة التشنج بفكرة أو بسبب اختلاف الطباع وتناقض الشخصيات (بين هوفنا وخصمه اللدود توني الذي يتشاجر معه في السجن، ثم بعد ذلك عندما يتأخر عن مواعده معه).

يركز سكورسيزي على النظرات وتعبيرات الوجه في لقطات قريبة جدا، لكنه يصور مشاهد القتل من بعيد في لقطات عامة، فهدفه ليس الصدمة، ويقطع الاندماج بواسطة التعليق البارد من خارج الشاشة، كما يكتب عناوين مضحكة على الشاشة تصف مصائر الكثير من الشخصيات وكيف ستلاقي مصيرها وتواريخ نهاياتها. يعتمد سكورسيزي أيضا على الكاميرا الثابتة واللقطات الطويلة والمشاهد التي تكشف لنا طبقة بعد أخرى من هذا العالم الغريب، كما تكشف التناقضات بين الطبيعة الظاهرية والقسوة المفرطة، فالهدف هو المحافظة على «البيزنس» وليس مجرد الانتقام الشخصي.

أجواء الفترات المختلفة تتبدى بشكل شديد الدقة والإتقان، من الخمسينات إلى الستينات والسبعينات، من طرز السيارات، تصفيفات الشعر، الملابس، واجهات المحال التجارية والحركة في الشوارع. وينجح مدير التصوير المكسيكي رودريغو بريغو للمرة الثالثة

قط على جنته، وظلت القضية مفتوحة حتى يومنا هذا). خدع فرانك صديقه هوفنا واقنعه بالاجتماع مع ممثلي المافيا لتسوية الخلافات بينهما، ثم أخذه إلى نزل مهجور وقتله وحرقت جثته في ما بعد.

يساله القس عن سبب انغماسه في العنف وسفك الدماء، فيقول ببساطة إنه كان يريد أن يحمي أسرته. وعندما يساله حمايتها من ماذا؟ لا يملك إجابة، لكنه يشعر بعدم الأمان في مجتمع كل شيء فيه محفوف بالخطر.

صورة أميركا

إننا أمام صورة لأميركا؛ العنف والفساد والجريمة والرغبة الشرسة في السيطرة والعلاقة بين السياسة والجريمة المنظمة. أما فرانك فهو «عمدالمأمور»، رجل مطيع، بطاؤون رأسه، يستمع أكثر مما يتكلم، يميل للصلمت والعمل في الخفاء. إنه «الأيرلندي» الذي يعمل في صفوف الإيطاليين من المرتبطين بالمافيا الصقلية. غريب يبحث عن النجاة وهو يسير وسط الألفام. رجل المهام الصعبة الدموية لكنه أصبح يتمتع بحماية راسل بافالينو، إلا أن هوفنا يحذره أيضا من احتمال أن يصبح هدفا لمن يتخيل أنه بحميته. ولكن حتى بعد موت كل من عرفهم وانقضت أمرهم وبعد أن يتقاعد في منزله وحيدا، يزوره أثنان من الصحافيين يلحان عليه أن يصرح بما يعرفه عنهم، لكنه يمتنع. أميركا هنا ليست أميركا الحلم الأميركي الوردية، بل الحلم الملوّث بالدماء، الطموح السياسي الذي

السيناريو يعتمد سردا متعرجا، ينتقل عبر 30 سنة، من الحاضر إلى الماضي، ليعود إلى الحاضر ويعبر فترات زمنية مختلفة في الماضي

الفيلم يقدم صورة لأميركا؛ العنف والفساد والجريمة والرغبة الشرسة في السيطرة والعلاقة بين السياسة والجريمة المنظمة

ينافس دي نيرو بقوة بل ويكاد ينتزع منه الأضواء آل باتشينو في دور جيمي هوفنا، يبدو حيننا وانقا بنفسه حد الغرور الذي يصل إلى الحماسة، وحيننا آخر، يبدو طفلا كبيرا ينتمسي وهو يرى أنصاره يهتفون باسمه في مؤتمرات اتحاد العمال، لكن حياته تهتز تماما بعد أن يرغم على التخلي عن رئاسة الاتحاد مقابل عفو رئاسي من الرئيس نيكسون. ومن ضمن ملامح الأداء عند آل باتشينو أيضا المغالاة والكاريكاتورية والزعة الاستعراضية، فهذا رجل «الشو»، الذي تؤدي به حماقته إلى مصيره التراجيدي. جون بيشي يعود من اعتزاله، ليدهشنا بسحر أدائه البسيط الواثق الهادئ تماما، فيبدو وكأنه يمنح رفيقه فرانك الحكمة التي يحتاجها، بوجهه ولكن لخدمة مصالحه دائما، وينصحه وكأنه يحذره، ويكفي أن يشير إليه من طرف عينه لكي يفهم الآخر المطلوب منه. «الأيرلندي» احتفال كبير بالسينما وبفن التمثيل، يجعلنا نشعر باننا نشاهد أوبرا عصرية في عالم الجريمة، ويظل المايسترو دائما هو مارتن سكورسيزي.

